الإنسانية في ديوان انهار ظمأى للشاعر صدام فهد الأسدي

أ. م. د شيماء هاتو فعل البهادلي
كلية التربية للعلوم الإنسانية

المقدمة:

لقد وقع اختياري على احدى مجموعاته التي ضمت في طياتها " انهار ظمأى " ولعل عنوان هذه المجموعة يثير الانتباه والدهشة والتساؤل الذي يطرح نفسه أتكون الأنهار ظمأى وهي كما نعرف مصدراً للخصب والنماء والحياة ؟ أكان العنوان القصد منه أثارة الانتباه وطرح التساؤلات من القارئ أم اراد الشاعر الاشارة والتنويه بانه سوف يجيب أو يشير إلى قضايا وهموم تخص الإنسان والمجتمع ؟ فهو بغض النظر عن ايجاد الحلول ونقد الواقع المرير اراد الشاعر الافصاح عنه وهو يختلج في زوايا مظلمة ومعتمة تثير لديه حالة القلق ومجهولية المصير فهو صاحب تلك الروح الشفافة السامية، لقد وجدت فيه ذلك التوكل والاعتماد على الله في جميع امور حياته، والإيمان المطلق بأهل البيت فهو دائماً ما يقول أني شاعرهم وكل ما أنا فيه وفيض شعري هو من بركاتهم، ولاسيما في مراحل مرضه والحالة الصحية القاسية التي مر بها، وعلى هذا فـــ " أننا نقّوم القصيدة بالقدر الذي يتجلى فيه صوت الشاعر الخاص بما يجعل اللغة معبرة عن حقيقة نفسه في اللحظة التي يكتب فيها حتى لكأنه يخلق عالمه في قصيدته مثلما يخلق لغته " [1] وأقول ان مجموعته الشعرية انهار ظمأى قدم لها

الأستاذ الدكتور فاخر الياسري استاذنا الجليل وهذا التقديم والشهادة القيمة بحق الدكتور الأسدي، يقدمها تحت عنوان: متى ترد الامواه إلى انهاره الظمأى؟ وتقديمه هذا زاد من جمالية مجموعته ولفتت الانتباه إليها، ولعل تساؤل الدكتور فاخر الياسري[2] يزيد الفضول بمعرفة الرمز او حل اللغز في كيفية ظمأ الأنهار، وحقاً سوف يجد المتلقي مبتغاه من خلال قراءة المجموعة ومحاولة فك الرموز المتناثرة في طيات اشعاره بصورة عامة، وفي ديوانه هذا بصورة خاصة.

وأجد النزعات الشعرية التي لحظتها في ديوانه هي ما نبه إليها الأستاذ فاخر الياسري، وهي النزعة الإنسانية، والنزعة الدينية والاجتماعية، والتعسفية، ونزعه السخرية والاستهجان، ونزعة الحزن والألم التي تعتصر قلبه الجريح، لقد اعجبتني طريقة نظمه للشعر لذا عنونت بحثي الانسانية في شعره.يقع عنوان البحث تحت دائرة التلقي، ويؤدي المتلقي دوراً مهماً في أحداثه معتمداً على ثقافاته وتصوراته حول النص الأدبي، وقد تناولنا في بحثنا هذا المجموعة الشعرية - أنهار ظمأى - للشاعر صدام فهد الاسدي لما تحمله هذه المجموعة من جدلية بدءاً من عتبة عنوانها وما تحتويه في طياتها من عنوانات لقصائدها ومضامينها الشعرية علما ًانه قد صدر للشاعر مجموعات شعرية عددها ست (محاجر الغسق، خيمة من غبار، لا شيء غير الكلام، أسباخ على رصيف التعب، ترهلات غيمة ذابلة، انهار ظمأى. درسه في لبنان طالب الماجستير (صادق داغر سعود الحلاف) ودرسه في كلية الفنون (عروض المسرح المدرسي) وطالب الماجستير (نزار شبيب العبادي) ودرسته في جامعة المثنى شيماء فاضل ياسر (لغة الشعر) في بحث تخرج ودرسته طالبة في كلية التربية شيماء نايف الاسدي (المصادر الثلاثية في انهار ظمأى) في بحث تخرج ودرسه الطالب محمد رسمي علي في كلية التربية، (الزمن السردي في شعر صدام فهد الاسدي) في بحث تخرج ودرسته الطالبة علياء وصفي طاهر في بحث تخرج (الاغتراب في شعر صدام فهد الاسدي).

المبحث الاول

لماذا انهار ظمأى؟

ومما لا شك فيه إن النهر جارٍ فيه مياه، والمياه عنوان للخصب والنماء والحياة، ومن يشعر بالعطش والظمأى فأن مياه النهر سوف تطفأ عطشه، ولكننا مع عنوان المجموعة الشعرية، فأن الشاعر يصدم القارئ أو المتلقي، والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف إن هذا الأنهار على الرغم من سعتها وعمقها تكون ظمأ ؟ وهذا يدعونا إلى البحث عن سبب ظمأ هذه الأنهار، ولعلنا سنجد الإجابة من خلال عنوانات القصائد التي احتوتها هذه المجموعة.

العتبة الاولى: إن عنوان المجموعة يوحي بأنه عطاء مقابل الجفاء، فهذه الأنهار على الرغم من العطاء والحياة التي توهبه إلى الآخرين إلا إنها تعاني الحرمان والجفاء فـــــ " أن الشاعر العراقي وبخاصة البصري لابد أن تراوده مفردة ما ذات مدلول كبير تظل تتلجلج في صدره لتصبح إحدى خصائصه الشعرية فيجعلها محوراً أساساً يبني عليه كونه الشعري الذي ينبؤ عن سمته ويميزه عن المبدعين الآخرين من أبناء جيله وممن سبقه أو جاء بعده[3].عندما ينطبق عنوان القصيدة مع المحتوى والمضمون،يقول الباحث سعد البازي (التأمل في الجماليات يعني بالنسبة لي تأملاً في ماهية الشعر، في ما يغدو به الشعر شعراً وما تغادر به الأشياء عاديتها والفتها لتكتسب الدهشة وتضيء)[4] أو تأتي أبيات القصيدة على وتيرة واحدة ولا يكون لدى القارئ أي انقطاع في الفكرة أو الرؤية، يكون المتلقي، وجاءت الرؤية مطابقة مسبقاً عما يتبادر في ذهنه فوجدها مكتوبة في أبيات، ولم يدهش أو يصدم بمضمونها، إذ هو " مفهوم يضع منظومة التوقعات والافتراضات الأدبية والسياقية التي تكون مترسبة في ذهن القارئ حول نص ما - قبل الشروع في قراءة النص - وهي فروض وتصورات قد تكون فردية لدى شخص محدد حول نص محدد، وقد

تكون تصورات يحملها جيل أو فئة من القراء عن نص أو نصوص بحيث يستقبلونها وهم محملون حولها بهذه التصورات التي تشكل (أفق التوقع) وتتكون هذه التصورات من سياق الجنس الأدبي، ومن اللغة الشعرية، ومن النمط السردي، ومن الحاصل الأدبي. ويأتي النص المقروء إما ليؤكد هذه التوقعات أو ليعدلها أو ينقضها أو يسخر منها وينسفها نسفاً كاملاً، تنثال الأفكار والتساؤلات لدى المتلقي عندما يطالع ويقرأ أي نص أدبي، وتحدد هذه الأفكار مستوى التلقي وتحدد المفهوم لديه، فقد يفهم قارئ ما النص الأدبي وتتولد لديه رؤية معينة تختلف من قارئ لآخر، إنها الصدمة أو الدهشة التي تصادف المتلقي، وهو في خضم قراءته لنص شعري ما أو حتى نثري يتبادر لذهنه، فتنخلق لديه صدمة من الانتقالات غير المتوقعة المتكونة في فكر القارئ لدى القراءة، فالشاعر عندما يأخذك في عوالمه الخفية والساحرة بترتيب الأفكار وتسلسلها ولوهلة يفاجئك وينقلك إلى فكرة أخرى وكما يقول الدكتور محمد صابر عبيد في كتابه المغامرة الجمالية (وإذا كان العنوان لا يشكل هماً شعريا ص جماليا للناص الأدبي من اجل استكمال معمارية البناء الأدبي بالرغم من انطوائه على شيء) (5).

العتبة الثانية: قراءة في تحليل النص: الاسترسال والتتابع في الفكرة يولد لدى القارئ فهماً وعندما يحدث الانقطاع تحصل الصدمة فتتغير الرؤية وتتولد فكرة أخرى، ونرى سبب ذلك يرجع إلى خيال الشاعر وسعة ثقافته واختلاف أفكاره ورؤياه.

وانعطافة يقصدها الشاعر من أجل خلق حالة من عدم الملل أو الضجر، أو لكثرة انثيال الافكار وتدفق الصور عنده، وبذلك يكون للباحثة زاوية رؤيويه نحو النصوص الشعرية في حين قد يرى آخرون إن لا وجود لها، وفيما أرى فأنه أسلوب الجاحظ في مؤلفاته تكشف عتبة عنوان المجموعة ذات الصيغة الأسمية على عنصر المكان، وعلى القيمة الأدبية والثقافية والتاريخية والجغرافية والحضارية لمكانية النهر بوصفه ملاذاً ومخلصاً ورافداً جوهرياً من روافد الحياة،

فضلاً عما يتسم به النهر من ألفة وحركية وحضور بصري طاغٍ، وخزين حكائي خرافي وأسطوري وميراث شعبي يثوي في أعماقه عند كل شعوب المعمورة ذات الجذور المائية وفي كل العصور، ولذلك حظي باهتمام واسع لدى كثير من المدونات التاريخية والدينية والأسطورية والثقافية[6] ومما قاله في قصيدة له بعنوان نفوس غزاها الصدأ[7]:

لوكنت أميرا لأمرت الجهلاء / بقطع الساقية الحبلى بالأوثان / لوكنت وزيرا لمنعت الشط من الهذيان

لو كنت أسيرا لقضيت العمر أخيط الشعر من الأجفان ما كنت سوى ضعف سيبيع العمر إلى الربان

كثرة استعمال (لو) في الأبيات تنذر بتعذر جميع الأمنيات المطروحة التي ارادت متنفساً لها كي تخرج للمحيط، وتتحقق الآمال والأماني التي يريدها، وامنياته بان يكون أميراً أو وزيراً، أو أسيراً بعيدة التحقيق لاستعماله الاداة - لو - وهي حرف امتناع لامتناع، فامتناع أن يكون وزيراً لتأميره الجهلاء، وامتناع أن يكون وزيراً لمنعه الشط من الحركة والهذيان، وامتناع أن يكون اسيراً ليخيطه الشعر من الاجفان، وتتحطم جميعها عندما يعلن الشاعر ضعفه واستسلامه أمامها، فعنوان القصيدة واسترساله بأبياته يحقق أفق توقع لدى القارئ انسجاماً مع العنوان والمضمون، ولابد من الاشارة إلى اعتماد الشاعر على الاجابة بشبه الجملة من الجار والمجرور وهذه تتجلى في قوله (بالأوثان، من الهذيان، من الاجفان، إلى الربان) والشاعر يشير إلى حالة البعد وكثرة الاحزاب بالعراق وما صنعته ببلده من تفرقة وبعد كما حصل مع النبي يوسف (عليه السلام) واخوته عندما اصبح بينهم التخاذل والخيانة، ولعل يوسف (عليه السلام) هنا يرمز إلى بلده العراق واخوته يرمزون إلى الاحزاب المتعارضة في العراق، وما ذكره لهذه الأفكار إلا دلالة على الاختلاف وعدم الاتفاق في بلد مثل العراق، فضلاً عن ذكره للقصص القرآنية التي أراد بها تقريب الفكرة إلى المتلقي قائلاً [8]:

بيني وبينك ام قالوا جهنم كانت / وعصت رب الأكوان /
بيني وبينك ادم يقطف
تفاح الجنة من البستان / كنا جسدا روحا / فكيف غزتنا الأحزاب /
وكيف عشقنا العصيان / انظر يوسف ماذا أودى الدهر بأخوته لما القوه بجب
عانى الحرمان

وأمام تلك الامنيات نجد الشاعر معتمداً على إيصال فكرته بالزمن الماضي من خلال استعماله الفعل الماضي (كانت، وكنا) وتكراره لأداة الاستفهام (كيف) التي يصف فيه الحال، فضلاً عن الاستشهاد بقصص الامم الماضية، مقتبساً فكرة الاختلاف ومشبهاً إياها بذكر القران الكريم لقصة أدم وحواء، وقصة النبي يوسف (عليه السلام) مع أخوته. وعند استمرارنا بالقصيدة نفسها وهي - نفوس غزاها الصدأ - ونصل إلى هذا المقطع، نجده يختلف عما عرضه في المقطعين السابقين، إذن ما علاقة الإنسانية بزمن العباسيين ؟ وما هي دلالة خروج الكف الذي يشير إليه الشاعر وهو يخرج من وسط الامواه ؟ هل يعني طلب النجدة والمساعدة أم أراد القول أنه خرج معلناً حالة الاحتجاج، وعدم الرضا والاعتراض لما هو سائد في ذلك المجتمع قائلاً فيها [9]:

الدنيا لا تنكر إنسانا، يعرف معنى الإنسان، في زمن العباسيين عرفت الحوض،
يخرج كف من بين الامواه، أمر الحاكم في ذاك الوقت العلماء، والحكماء
والبهلول المعروف، بفطنته في كل الأرجاء، لماذا يطفح هذا الكف بوسط الماء؟
حارت كل الدنيا.

نعم الدنيا لا تجهل إنساناً يعرف معنى الإنسانية، متطرقاً إلى زمن العباسيين ذلك المجتمع الذي ساده التفرقة والاختلاف، مشيراً إلى الكف الذي يخرج من الحوض معبراً به عن إرادة الشعب، ورفض القيود وطلب الحرية، لذلك سعت تلك السلطة من القضاء على تلك الكف بشتى الوسائل والصور. ونجد الشاعر يتكأ على الافعال المضارعة وهي (تنكر، يعرف، يخرج، يطفح)

للدلالة على استمرارية الحدث. ووسط تلك التقولات التي يطرحها الشاعر صدام الاسدي في قصيدته " اتكاء على ظهر الغيمة " مؤكداً عدم صحة ما يطرحه أو بعده عن الحقيقة قائلاً [10]:

قالوا للمطر مواعيد / ليت الريح ستصدق / يوما وقت الإبراق
قالوا للإنسان المتحضر خوف / من حكم الرب على الإنسان العملاق

من يقرأ العنوان يتصور إن المضمون الذي اراده الشاعر هو الاعتماد والاتكال على السراب فالمتعب غالباً ما يبحث عن أي شيء يستند إليه، ولكن الاتكاء على الغيمة يحصل في الاحلام فهي ليست الملجأ والمهرب الذي يلتجأ إليه مَنْ يبحث عن الراحة والاستقرار. ويبدو أن ما يسرده الشاعر من تقولات نفاق ومجرد أقاويل واهية باطلة لا تستند إلى دليل عقلي يحيلها إلى الحقيقة أو يجعلها قريبة للواقع باعتماده على الكناية في قوله (شربنا اليأس) للدلالة على تغلغل القنوط في قلوبهم، وما قوله (تسطير الالفاظ...) إلا استعارة عن كثرة الاقوال من دون الافعال، لذلك هو في خاتمة مقطوعته يصرح بذلك قائلاً[11]:

قالوا وشربنا اليأس كما قالوا، وفر القمر النعسان لأي زقاق
في ارضي أتشاءم جدا حتى اكره، تسطير الألفاظ على الأوراق
كيف اصدق تلك الدنيا يتغير فيها، حتى الاسم من الدنيا يصير نفاق

ولعل انتقال الشاعر من المقطع الأول الذي يعني الخيال، إلى المقطع الثاني الذي يعني الواقع يمثل صدمة و قال [12]:

وصحا الشاعر من غيبوبته، يوماً ينظر كيف تسير الأشياء
فيرى النمل صغيرا يجمع، ذاك فتات الخبز لأي شتاء
ويرى الطير يزقزق حتى مل، النائم من تلك الأصداء

وكأن الشاعر يصحو من سبات وغيبوبة تعايش معها على الرغم من إرادته وإذ به ينظر إلى الأشياء كيف تسير، وتبدو الصدمة هنا جاءت عندما صحا من غيبوبته، ولحظ ما يحيط به عندما أتى من عالم الخيال إلى عالم الواقع، فكل المخلوقات ومن ضمنها الناس وبالتحديد الفقراء يسعون من أجل

الحياة، وفي الافعال (ينظر، يرى، يجمع، يزقزق) المضارعة دلالة على التفاؤل والأمل والاقبال على الحياة، ولعل هذا ما دعا الشاعر إلى الصحوة والاستيقاظ من أجل الايذان ببدء حياة يسودها السعادة والوئام. وفقاً لعنوان القصيدة والمقاطع التي عرضها الشاعر، فإن هناك مواقفاً متباينة، قد اتفقت مع القارئ أو أختلف معه في حدوث الصدمة وكسراً لافق تلقيه، فأننا نلحظ عنواناً ثم مقاطعاً لأبيات القصيدة التي ضمها ذلك العنوان، قد يجمعها معناً واحداً يكون مترابطاً بوحدة عضوية كل يؤدي إلى الآخر، أو يكون عنواناً يجمع قضايا ومواقف مختلفة.

المبحث الثاني:

بداية في تحليل النص

وعلى حد قول الدكتورة بشرى موسى صالح (شغلت مسألة تحليل النص مسارا طويلا ومتعرجا في خارطة النقد الأدبي الحديث واشترك في هذا الأمر النصان الشعري والنثري او السردي معا) 13يبدو إن الغيبوبة التي صحا منها الشاعر لم تكن طويلة، وكأنه يهرب بها من واقع مرير، ومجتمع يعاني الفقر والحرمان، فهو لا يريد التذكر والعيش مع المجتمع، فالغيبوبة أطول من الاستيقاظ والاطلاع على الحقيقة التي لم يرغب برؤيتها، متناسياً ذلك الواقع التعيس قائلاً [14]:

ورأى الفقراء يقومون بواجبهم / في طلب الخبز من التعساء
ورأى النسوة كانت يوما تجمع جمعا تكسيراً – هن نساء
ورأى فوق البيدر معول خير / لرجال ينتظرون طلوع الشمس بدون رجاء/
ما للإنسان يبيع سعادته على الجهلاء ؟

إنها حالة من حالات معاناة المجتمع الفقير بين عالم الواقع والخيال منتقداً المجتمع الذي يعيش الفوارق الطبقية بين الغني والفقير، ففي تكراره للفعل

(رأى) دلالة لرؤية احوال الناس التي لم تكن سبباً لسعادته وانما الرؤية هنا جسدت واقع اليم، وتتضافر معه الالفاظ التي استعملها في قوله (التعساء، بدون رجاء، والجهلاء) لتؤكد رؤيته غير الموفقة. وفي اشارة منه إلى اقتران وقوف الشعراء مع الاغنياء وشتان بين الاثنين، فقد فضل الشعراء على الاغنياء من خلال عباراته (غلقت الباب، فتحت الباب) الذي يجده منفذاً لدخول المقطع الرابع من القصيدة في حديثه عن الشعر قائلاً [15]:

وقف المليونير ببابي فغلقت الباب، وقف الشعراء ببابي ففتحت الباب

فهو لا يفضل الحيلة والتلفيق في قول الشعر وإنما يطلب قوله كما تجيش به مشاعرهم، وتحس به عواطفهم، فالشعر الكاذب سرعان ما يسقط فهناك مَنْ يقارن بين الخير والشر وكيف ان الخير يعلو والشر ينحسر في زاوية مظلمة قائلاً فيها [16]:

قولوا للناس الشعر كما كتبته أصابعكم / وكما قالته مشاعركم/
قارن بين الأجيال تماما بين الخير وبين الشر/ فتلقى الخير بعيدا
يعلو وزاوية الشر تضيق!! في الشعر دروب أخرى غير المدح
وغير الذم وغير الغزل الفاحش كيف تهدم بيديك البنيان؟
في الشعر-الإنسان-الإنسان-الإنسان / صف حريته وابك لعذاب الفقراء
وامسح دمعة طفل ما ذاق عشاء / ليس الإنسان سويا لو ظل كما تهواه الدنيا
بل سيغير تلك الأشياء!

يطغى الجانب الإنساني على قصائده بل أنه يفضله ويفضل الحديث عن معاناة الناس الفقراء ويشير إلى احتياجاتهم، وتجسد أفعال الأمر (قولوا، قارن، أبك، صف، أمسح) مع افعال المضارعة (تلقى، يعلو، تضيق، تهدم، تهوى، يغير) فضلاً عن افعال الماضية (كتبته، قالته، ذاق) ما كان ينشده من جوانب إنسانية مثلى يدعو إليها، وأرى في قوله... فتلقى الخير بعيداً يعلو وزاوية الشر تضيق !! تفاؤلاً يكاد يسود ويغير من نظرة المتشائمين إلى الأمور، ونقول هل عاش الشاعر تلك الاحزان والحاجات فراح يذكرها بأشعاره ويحس بها،

والتي اجدها شاملة لأغلب قصائد المجموعة ؟ أم أنه يملك قلب الشاعر الحساس التي تثيرها معاناة الفقراء ويحركها دمعة طفل يتيم، من هنا تظهر وظيفة الشعر السامية والهدف الأسمى من الشعر ليكون معبراً عن موضوعات إنسانية تهم البشر لا أن يكون مقتصراً على المدح والذم والغزل الفاحش، ومنها مسألة الفقراء والأيتام. وكأن الموعد الذي يشير إليه هو يوم القيامة والحساب لذلك يطلق عليه يوم الموعد ويوم العاصفة الكبرى وفيه يخسر الإنسان كل شيء ولا يبقى إلّا العمل فكم قدم من خير يلقاه وكم زرع من شر يحصده، فعدالة الله واحدة وعدالة الإنسان ذائبة لاوجود لها، وفي قوله " ستعصف بأذن قل يا عبدي أين فعلت الخير وباي الوديان " اشارة إلى إن الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ويذكرها للإنسان فعنده لا تضيع الأمور، ولكنه يستدرك قائلاً بأن رحمة ربي أكبر من فعل الإنسان.

وفي قصيدة بكاء رغيف على كف طفل يتيم تحدث عن الوطن وما حل فيه من دمار وخراب ومعاناة، وفيها يصيح الشاعر مستصرخاً يطلب المعونة من اشخاص، ويستدعي اسماء شخصيات قديمة كانت معروفة بالشجاعة والوفاء والحب، إذاً هو تصوير لواقع العراق، وما أصبح فيه من مجاعة وقضاء على علاقات الوئام والمحبة بين أبناء المجتمع قد استعار لها ألفاظاً وضحت مأساة العراق فضلاً عن كثرة توالي الافعال في بداية كل بيت شعري (أحبس، صدقت، يرجع، كتبت، تحنطت، أهفو، كن، نظرت فضلاً عن الافعال يصل، يغيب، يصرخ، يهدى، تسكبه) وهذه الافعال تدل على الاستمرارية الحدث، وقد أدت الملاحم التي مر بها العراق بالظمأ لذلك يطلب له المطر والخير والفرج لتقضي على السنون العجاف قائلاً فيها [17]:

رحماك يا وطن العجائب! والخرائب ! والمجاعة! والدماء، احبس هنا مطر الحقيقة، حين تسكبه السماء، صدقت بل آمنت أن الأمر، يرجع للقضاء، كتبت عليك ملاحم ظمئت

من السبع العجاف، وتحنطت فيك النساء، أهفو إليك وسرني زلق البكاء، كن زائري، ما أجمل الأمطار تهدى، مثل فاكهة الشتاء، بغداد - قد يتمت كثيرا حين تثقلها الدماء، قد صحت آه، ولم يصل بعد النداء، ونظرت حول الريح، لا سيف ابن يزن، لا كليب، أين السمؤال لن يغيب به الوفاء!! لا عنتر في النوق يصرخ عبلة

وكأنما أراد الشاعر القول اجتماع المجاعة مع اليتم في وطن فيه الخرائب والدماء، وكأنه ينفي أن يكون للقضاء والقدر تدخلاً في ذلك الحال، فعندما تقترن الكلمات - بكاء مع رغيف ويتيم - معاً يتبادر لذهن المتلقي إن الشاعر سوف يذكر أموراً تتعلق بالواقع المعاش الذي تعيشه فئة اليتامى، وهم يعانون الجوع والحرمان وهذا ما تنطق به كلمة (بكاء) للدلالة على حزن هذه الفئة المنكسرة، لذلك فهو يطلب الرحمة والرجاء من الله وعن طريق المطر حتى يحيي القلوب الظامئة، فضلاً عن استدعاء شخصيات ومسميات تنقذ الواقع الأليم الذي يعيشه بلده فهو ينظر إلى الريح وهو انتظار من دون جدوى عسى الريح أن تأتيه وهو ينادي هذه الشخصيات ومنها (سيف ابن يزن، كليب، السمؤال، عنتر وعبلة). ويسير الشاعر على وتيرة واحدة في هذه القصيدة، يبدأ بتعريف الوطن بجملة أسمية عندما يقول في بداية بعض ابياته (هو منبع صاف، هو دجلة... والفرات، هو نبضة فاحت) التي لها دلالات تؤكد العطاء الدائم والحياة، فضلاً عما يرمز له دجلة والفرات على النماء والخصب، عارضاً معاناة العراق وشعبه وما حلّ به من دمار وخراب قائلاً[18]:

هو منبع صاف، كما أدركته ؟؟، من أين جاء له الطغاة
هو دجلة فاضت، يمشط شعرها الذهب الفرات!!
هو نبضة فاحت، قديما من خزام، لونت كل الرئات
ما الذنب كان من الرفاق!! أيقنت وحدي، في دمي الصديان مسألة النفاق، قد أعشبت وتعوشبت، في أرضنا حد البصاق

ثم يصف مجيء الطغاة له فقد كان في خير وسلام يتعانق فيه نهرا دجلة والفرات إذ " يبقى المكان بعمقه التاريخي منبعاً لحوارية اللغة وحوارية الصورة ومنجما لتزويد قوة التعبير عن الهوية والمصير برؤى تعبيرية هائلة..."[19] وما دلالة تعانقهما إلا على الحب والوئام الذي كان يربط الأهل والاحبة، فنبض بلده من ريح الخزامى، ولكن الافاعي قد زحفت على تلك البلاد، وبدلت حياتها الهانئة التي يسودها الوئام إلى حياة يسودها التعاسة بسب النفاق وقد اصبحت مملة نتيجة لانتشارها في البلاد. وينهي القصيدة بالتساؤل الذي يعلنه، وهو تساؤل للعارف الذي يتجاهل ما موجود مستنكراً بأن لا خير ولا نعيم في هذه البلاد بقوله [20]:

يا موطني!! هل كسرة للخبز ضلت، في مرافئك القصار، اشبع بها الطفل اليتيم

إلى أن يصل إلى خاتمة مطاف القصيدة ليختم بها معاناة اليتيم التي يبحث فيها عما يشبع جوعه، فهو لم يجدها في خيرات العراق، والعز والرفاهية التي تزدهر به اراضيها، ولكن الافاعي التي جاءت إلى العراق كان تأثيرها أقوى وأشد من أفعى سيد دخيل في الناصرية، فهي لم تخرب فقط، بل روعت أهلها ساكني المنطقة واماتتهم كما فعلت الافاعي الدخيلة على العراق.

اما الحكاية التي يقدمها الشاعر في قصيدته نشيد السمكة الميتة فأنها ذات مغزى أراد ايصالها إلى المتلقي وهي الفساد والخراب الذي عم المجتمع، إذ لم يجد فيه جزءاً صالحاً وقد عنى به رأس السمكة، وهذا ما نجده في أبيات القصيدة التي قال فيها كتب هذا المقطع عام 1987: [21]

وقت الظهر اشتد الحر، والزحمة تقتل كالفأس، يبدو محتارا منزويا، وقوي الهيبة والبأس، ويردد جاعت عائلتي، كانت واحدة ويشمها من عند الذيل!!!!، قال البائع كيف تشم الذيل، وتدري أن فساد السمكة في الرأس؟؟؟ فتأمل ذلك منفعلا!!! ويشد الحسرة بالويل، ادري الرأس صار رديئا هل فسدت أطراف الذيل!!!!

قراءة للواقع ونقد له، وهو يرسم صورة أعتمد فيها على الافعال (تقتل، يبدو، يردد، يشمها، تشم، تدري، تأمل، يشد، أدري، فسدت) لرجل يعاني الحيرة ومنزوي ويردد قائلاً جاعت عائلتي وتدور الحاجة لديه ويقول سوف اخذ سمكة ويسمع منادياً ينادي ويأخذ سمكة واحدة دليل على عدم استطاعته لشراء أكثر منها وراح يشم الذيل فقال له البائع فساد السمكة من الرأس، ويرد على البائع وهو منفعل أعرف الرأس صار رديئاً مشيراً إلى فساد اطراف الذيل، وكأن هذا المجتمع لا خير فيه فقد فسد ذيله كما فسد رأسه. وبعد تلك الحكمة التي عرضها الشاعر، نجده يعرج بالحديث عن الشيطان ومعصيته لربه، وكيف أنه غوى أدم ورفض السجود له، والحديث الذي يسرده الشاعر عن السمكة وعلاقتها بالرجل الذي أراد أن يشتريها كما بينا ذات مغزى، عندما حصلت المحاورة بين البائع والمشتري، ولكن المقطع الثاني يأتي كاسراً أفق المتلقي ليتحدث عن الشيطان وغوايته للإنسان، ومقتبساً قوله " قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ " [22] ومعرجاً بحديثه عن غواية الشيطان للشعراء، وان أول خلق سوف يحاسب هو الشاعر الذي يقول ما لا يفعل، كما أشارت إليه الآية القرآنية في قوله تعالى " وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون الَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ[23] التي قال فيها[24]:

الآن صحوت من الغفلة حتى / أيقنت غواية نفس الشاعر كيف!!!!!
معصية الرب بعشق النفس / صدوداً عن ذكر الله كحد السيف
الشيطان غني جدا فله، ألف نشيد يطرب روح الطيف
((أني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون))) !
وأنت غويت الابن الشرعي، من الجنة في أكل التفاح
خلقته من طين وخلقتك من نار، ورفضت سجودا، يا شيطان الزمن الغاوي
برمي الأحجار، كنت تؤذن للوكي، وتتعبد في ارضي وقلبت الأدوار

أول مرثي في الأرض، الأزلي المنقول من الجنة ادم، كان مثالا تمشي إليه الناس، كان وسيطا بين البشر وبين الله – كان الوالد

وتماهى الخلق على لعب الشيطان، الشاعر أول سطر، سيحاسب يوم الفرقان

والقارئ المتأمل في المقطع الأول من القصيدة يجد توافق الرؤى والمضمون مع عنوان القصيدة ونجد في بناء هذه الابيات التي يتحدث فيها عن غواية الشيطان ورفضه السجود لأدم والمحاججة التي جرت بينه وبين الله ﷻ بأسلوب قرآني وآيات والفاظ دينية اقتبسها من القران الكريم، التماسك والوحدة العضوية التي تشد الابيات بعضها مع الآخر، والسؤال الذي يطرح نفسه، هل توافق المقطع الثاني وجاء موافقاً لما طرحه في المقطع الأول أي موافقاً لافق تلقي القارئ ؟ ويعني أنه نشيد الشيطان الأزلي في استكباره وعدم طاعته لله، أم انه يقصد شيطان الشاعر الذي يغويه فيقول الشعر تزلفاً وتقرباً من الملوك الطغاة، يطلب رضاءهم، وهو بعيد عن الحقيقة والصلاح، لذلك فهو يعلن أن أول من يحاسب في يوم القيامة هم الشعراء الذين وقفوا مع الشيطان فكانوا الاداة الطيعة له. في حين أن الشاعر في قصيدته – دوامة الصبر – يطلب من الشعراء أن يحدثوا الانقلاب ويغيروا الواقع وينشدوا الاصلاحات وفي هذه القصيدة يتغير رأي الشاعر صدام فهد الاسدي حول الشعراء ليكونوا عناصر فعَّالة في المجتمع، يُحدث الثورة، ويدعو إلى استنهاض الهمم، وينقلبوا على الواقع المرير الذي يعيشه المجتمع في ظل الحكومات المستبدة، ويبدو دور الشعراء في اصلاح المجتمعات، وتغييراً للواقع وبالفعل أخذ الشاعر دوره الايجابي قائلاً فيها [25]:

اغضب لأنك من ضميرك تغضب ... مادام مال الشعب نهبا ينهب

واعصف كما ريح السموم تعاصفت ... غضبا فصبرك في عذابك مشجب

وتمزقت رئة العراق فهل لها ... رزق يظل اذا العصابة تسلب

قد كان طغيانا عبرنا طوقه ... واليوم في هذا نموت ونصلب

قد كان سجنا قد قضينا قهره قامت عليه العاصفات فيهرب
واليوم كم لصا رأيت كما ترى دوامة دارت وريحاً تغـــضب
اللص يسرق ثم ينهى دوره ويجيء من تلك النطيحة يحلب
وكفاك تسكت لست تلقى منقذا مـــن ذا يفك قــيودنا يترقب
القيد طعما كم عشقنا وصفه ذا قيـــــدها الأحرار قيد مرعب
الأمس تشكو للقصائد حزننا واليوم مـــات القلب ماذا نكتب
ألامس كان الجوع يعصف في دمي واليوم عصف الجوع عصف معشب
الأمس بهلول يقود عزاءنا واليوم بعد الصبر قادنا أشعب
النفط يجري في طريقك سائلا وتـمد كفا للاجــانب تـــــطلب
انا كم كرهت هنا السياسة مبحرا واراك ترقص للـــــسياسة تطرب
لو كنت سيفاً يا أخي ماقلتها نازلتها انـــــى صـروحك تقرب

قصيدة وطنية ثورية تستنهض الهمم، وتطلب الوقوف بوجه الطغاة، والذين يسلبون خيرات العراق أمام مرأى الناس من دون خوف أو وجل، ومشيراً في هذه الأبيات إلى غضب الشعب وذلك لأن امواله قد نهبت، ويطالبها بالعصف كما ريح السموم تأتي حارة، ومشيراً إلى عمليات السرقة والنهب التي يتعرض لها العراق فبعد الطغيان يأتي الموت والسلب إلى آخر الابيات، وإذا جئنا إلى قافية القصيدة فأنها تنتهي بحرف الباء وهو من الاحرف السهلة النطق التي يسهل خروجها من الحلق، ونجده يتكرر كذلك في أغلب ابيات القصيدة، ففي البيت الأول كررها أربع مرات، والبيت الثاني ثلاث مرات، وفي بقية الابيات يتكرر، ولكن بصورة قليلة لا يتجاوز مرة أو مرتين، فضلاً عن التناغم والانسجام في الالفاظ ومشتقاتها (اغضب، تغضب، غضباً، نهباً، ينهب، اعصف، تعاصفت، القيد، قيدها، صبرك، الصبر) وتكرار بعض الالفاظ (الامس، اليوم، الريح، كان، اللص) وكل هذه الاساليب تحدث

تناغماً وتناسقاً في موسيقى القصيدة. ويبدو أن انهار الشاعر الظمأ تجسدت في المقاطع الشعرية التي نثرها تحت هذا العنوان، تشكل محوراً أراد بيانه وتفسيره والاشارة إليه وكلها، أو أغلبها تدور حول الشعر قائلاً فيها [26]:

دعوا الشعر يدفن موتاه ويرحل

دعوا الشعر يكثر إبداعا لا يكثر وزنا ونظما

يدعو الشاعر في بداية قصيدته إلى ترك الوزن والقافية وعدم التقييد بها عند نظم القصيدة وهي ذاتها الدعوة التي دعا إليها الشعراء أمثال نازك الملائكة والسياب والبياتي.

هنا افرش الجسر للعابرين، واسحق صخر الأسى، في جدار الدخان

وهنا تظهر ايحاءات الشاعر من فرش الجسر للعابرين، وسحق صخر الاسى والعذاب، وكأن الشاعر يطلق العنان لمشاعره واحاسيسه في التعبير عما يختلج في نفسه، ويعبر عنها بصورة بعيدة عن القيود، وكأن لا عمود شعري موجود.

هنا أتوحد ظلا يعوف، غبار القطيع، والحق يوما بشكل

الأمان زوايا الربيع، سراجي الحزين المندى

كفى قد أضاء غبار الهزيع، وفي قرية الجدب حال الرهان

يظهر ان الشاعر يعشق الحرية واللاحدود، لأن القيود تمنعه من التحليق في ذلك الجو، وليته يلحق الربيع ويكون ولو في زواياه، وسراجه الذي يبعث الضوء الخافت، فهو يطلب منه أن يكفي من الاضاءة الخافتة فقد كان غبار المعارك أفضل منه. وعند قراءة المتلقي لقصيدة تأملات في زوايا الفراغ فأنه يتوافق مع تصور الشاعر لما يريد قوله وهو يندب لحظات العمر التي تمر وهو بانتظارها وهي تدور في فراغ، فالمصير واحد إذ يقول فيها [27]:

لحظات تمزقت وأخرى / تطوف هنا وهناك

أسرجت خيلها عند بقيا الفراغ / لن تجوع السبايا اذا

ما مشت في زوايا المكان / ليت يلقى المغني

بقايا الزمان / أرح عن ركابك طوق الأمان
كل عمري الذي كنت احلم أصبح كان

هناك لحظات ولحظات لم يستغلها الشاعر وقد بقت عند الفراغ فقد أصبح ذلك العمر في الماضي، فما بين زوايا المكان وبقايا الزمان تضيع لحظات الشاعر وتغيب لذلك هو يستعين بقول الشاعر الجواهري في قصيدته ارح ركابك [28] لأن احلامه اصبحت ماضية، ويبدو تأثر الشاعر واضحاً بمن غيره من الشعراء في المعاني والالفاظ والصياغة والاسلوب، ومن هؤلاء الشعراء الذين تأثر بهم الجواهري. وتتجسد زوايا الفراغ عند الشاعر في قوله:

فهل ضحكة تختفي في زوايا الليال؟
وهل درهم يختفي في المدينة يرجع يوما لذاك الحلال؟
وهل قارئ يفتح الروح مثل بلال؟ أظن الحقيقة قد بدلت
ولم يبق في الماء ذاك الزلال إذا كنت تصبر مثل القرون
التي قد مضت فان المنى لا تنال / وان الليالي الصعاب
الثقال - ستأتي تذكر مني - نشيد المقال -

من دلالات الليل الهدوء الذي نسمع من خلاله كل شيء، وبذلك تكون الاجابة إن الليل لا يخفي حتى الضحكة، ومن دلالات المدينة السعة والتيه، وبذلك تكون الاجابة لا يرجع ذاك الذي يختفي في تلك المدينة، ولا قارئ مثل بلال لعذوبة صوته وشجونه قد اختاره النبي محمد ﷺ وأراد الشاعر من تلك التساؤلات إيصال المتلقي بأن شعره هو ما يفصح عنه، الذي لا يستطيع أحد نكرانه لأنه جاء من جهد وصبر وتوفيق من الله، فكثرة الاستفهامات أراد بها الانزياح عن معرفة الاجابة، والعلم بالشيء إلى الاستنكار والتجاهل وحينما ننتقل إلى قصيدته جلود هتكها الوسخ يطرح تساؤلاً يحفز المتلقي لمعرفة أجابته في اشارة من الشاعر إلى أن ذكر مفردة الحصى تشير إلى العوائق والعراقيل التي تواجهه، وفيما يبدو إنها أمنية مؤجلة وغير محققة قائلاً فيها [29]:

متى يرحل كل الحصى عن جنوب الطريق
لتعشب فينا الصباحات كهفا من الحب
حتى يمض بنا القول نمسح تلك الجباه /
ونقهر نار الحريق التي حرقت وجه أطفالنا
وهم يبحثون / عن النور بين دبيب البريق /
ومن يكسر القفل أن الأفاعي التي أكلت جنة الله كلها
أظن الثرى هكذا لا يليق

يستنكر الشاعر النفاق الذي استشرى بين الناس وضياع الحب والتسامح فيما بينهم، لذلك يمثل تلك الاحقاد التي في قلوبهم بالحصى التي يتمنى لو زالت ويظهر كهف مليء بالحب يكتنفهم ويبعدهم عن الحقد والبغضاء، ومن جميل قوله عن الحقد والبغضاء الذي أنتقل واستقر في اطفالنا ودمر طفولتهم ومزق احلامهم، فهم بالفطرة يولدون على التسامح والبراءة، ولكننا نزرع فيها تلك الادران والاوساخ، لتمزق تلك الطفولة البريئة، تشبيه جميل لدى الشاعر وهو يشبه تلك الاحقاد الافاعي التي تصل للإنسان وتدمر براءته، والتي لم تسلم منها جنة الله التي يرمز بها إلى الإيمان والمحبة والسلام اذا قال الشاعر:[30]

وتلك جلود أرى عفنت بالغبار / وخيبتها دفنت مرة في الجدار /
لتشرب كأس المنون بعيدا وتكره لون الفنار / ذبحت كل أمالها / وهي تنزع
ثوب الشوارع باحثة عن مجيء القطار / و(مطربة الحي لا تطرب) / وبالرغم
من لمسات القفار نصيح سدى يرحل العمر ونطلب لعب القمار [31]

إن حالة الخيبة والحسد التي عاشتها الإنسانية جعلتها مدفونة وكأنها غبار سرعان ما تضمحل وتتلاشى، على الرغم من عيش الإنسان بين هذه الحالات فهو سرعان ما يدرك انقضاء العمر من دون نفع فقد ضاع عمره وعنده شعر بالضياع والخسران.

الخاتمة:

من الجدير ذكره إن المجموعة الشعرية التي تناولتها بالبحث تعرضت للدراسة من قبل باحثين غيري، فضلاً عن الآراء والطروحات على مواقع شبكة المعلومات الانترنيت، وهذا الأمر عرفته بعد اختياري وبحثي ودراستي لهذه المجموعة، بما رفدني به الشاعر صدام فهد الاسدي.

فمن يقرأ قصيدة من أي عصر كان، فأنه يستطيع تطبيق هذين المصطلحين، ولكن ليس كما هو معروف في الدراسات الحديثة، فالقصيدة مكونة من مقدمة غزلية أو طللية ثم الغرض والخاتمة وكما أرى إن مقدمة القصيدة تحت أي عنوان أو مسمى عندما يقرأها المتلقي بما فيها من أفكار ومعانٍ، تختلف عن الغرض الاساسي الذي جاءت منه على الرغم من إن الناقدين يقولون إن القصيدة من مقدمتها إلى غرضها وخاتمتها تجمعها وحدة عضوية تلم شتات ابياتها الشعرية. فبعض القصائد من بدايتها إلى نهايتها تسير على وتيرة واحدة، ويتوافق عما يريده الشاعر، فضلاً عن توافقه مع عنوانها، فأحياناً يكون عنوان القصيدة يتوافق مع المقطع الأول من القصيدة، فيحدث لدى المتلقي ما يسمى - بالصدمة أو الدهشة وهذا ما عرضناه في بعض قصائده.غلبة الجانب الإنساني على أغلب قصائده، والتعرض لمعاناة المجتمع من فقراء ويتامى، فضلاً عن روحه الوطنية وقصائده الثورية، التي يدعو بها إلى مواجهة الافاعي القادمة من أجل نهب خيرات الوطن، كثرة الاستفهامات والتساؤلات، وفيها يكون متجاهلاً عارفاً، فهو يطرح تساؤلاته مستنكراً ومستغرباً لما يحدث حوله، وشيوع الافعال الماضية والمضارعة وافعال الأمر.

قائمة الهوامش:

1) لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية: د. عدنان حسين العوادي، دار الحرية للطباعة (بغداد 1985) / 22.
2) مقدمة في ديوان انهار ظمأى بقلم الدكتور فاخر الاسدي.
3) من تنومتي يطلع القمر، دراسة في شعر الاستاذ الدكتور صدام فهد الاسدي: د. قصي الشيخ عسكر، ط1، دار ومكتبة البصائر (بيروت 2013) / 15.
4) القصيدة والنص المضاد: د. عبد الله الغذامي، ط1، المركز الثقافي العربي (بيروت1994) / 163.
5) ينظر: جماليات النص الأدبي: د. فيصل صالح القصيري، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع (سوريا 2011) / 210.
6) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر صدام فهد الأسدي، ط1، دار معد للطباعة والنشر (سوريا2011) 559.
7) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر صدام فهد الأسدي: 559.
8) المصدر نفسه: 560.
9) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر صدام فهد الأسدي: 605.
10) المصدر نفسه: 605.
11) المصدر نفسه: 605.
12) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر صدام فهد الأسدي: 606.
13) المصدر نفسه: 606.
14) المصدر نفسه: 606.
15) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر صدام فهد الأسدي: 613.
16) المصدر نفسه: 615.
17) حركية التعبير الشعري: د. محمد صابر عبيد، ط1، دار مجدلاوي (عمان 2006) / 23.

18) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر صدام فهد الأسدي: 617.

19) المصدر نفسه: 619.

20) سورة الحجر: 28.

21) سورة الشعراء: 224 -226.

22) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر صدام فهد الأسدي: 620.

23) المصدر نفسه:627.

24) المصدر نفسه: 597.

25) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر صدام فهد الأسدي: 609.

26) ينظر: ديوان الجواهري: بغداد دار الشؤون.2001.

27) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر صدام فهد الأسدي: 565.

28) المفكرة النقدية، د. بشرى موسى صالح، ص57

29) ابواب القصيدة، سعد البازي، ص17

30) المغامرة الجمالية. د. محمد صابر عبيد، ص113

31) ديوان انهار ظمأى صفحة 71

قائمة المصادر:

القرآن الكريم

1) ابواب القصيدة (قراءات باتجاه الشعر)،سعد البازي، المركز الثقافي، بيروت لبنان، 2004.
2) القصيدة والنص المضاد: د. عبد الله الغذامي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت1994
3) الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر صدام فهد الأسدي، ط1، دار معد للطباعة والنشر (سوريا 2011

4) المفكرة النقدية، الدكتورة بشرى موسى صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، 2008، بغداد.
5) المغامرة الجمالية، د محمد صابر عبيد، عالم الكتب الحديث، 2008، بغداد.
6) جماليات النص الأدبي: د. فيصل صالح القصيري، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا 2011
7) حركية التعبير الشعري: د. محمد صابر عبيد، ط1، دار مجدلاوي عمان2006)
8) ديوان الجواهري: الاعمال الكاملة من 1 – 7، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد 2001.
9) لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية: د. عدنان حسين العوادي، دار الحرية للطباعة (بغداد1985).
10) من تنومتي يطلع القمر، دراسة في شعر الاستاذ الدكتور صدام فهد الاسدي: د. قصي الشيخ عسكر، ط1، دار ومكتبة البصائر (بيروت 2013).